الفصل الأول

الرحيلُ إلى مَشَارِقِ الرُّوح..!

رَجُلُ الأَسْرَار

فَتْحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ لَيْسَ يَبُوحُ بِهِ!..

فَتْحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ تنتظره الدنيا، لكن لا يخبر به أحداً!..

فَتْحُ اللهِ يحمل في قلبه ما لا طاقة له به؛ ولذلك لم يزل يبكي؛ حتى احتار الدمعُ لِمَأْتَمِهِ!

فَتْحُ اللهِ وارثُ سِرٍّ، لو وَرِثَهُ الجبل العالي؛ لانهدَّ الصخر من أعلى قمته، ولَخَرَّتْ أركانُ قواعدِه رَهَباً!

فَتْحُ اللهِ فَارِسٌ ليس تلين عَرِيكَتُهُ، ولا تضعف شَكِيمَتُهُ! ولَصَوْتُهُ في الكَرِّ أشدُّ من فرقعة الرعد! يقاتل في النهار حتى تذوب الشمس في دماء البحر، فإذا خَلاَ لِأَشْجَانِ الليل بكَى..!

مَكِينُ الوثبة كالأسد، حادُّ الرؤية كالصقر، رهيب الصمت كالبحر، إذا سكتَ خَطَب، وإذا نطقَ الْتَهَب! وإنه لَيَشِفُّ كالزجاجِ إذا هو كَتَب!

كل الناس يعرف فتحَ الله، وكل الناس يسمع فتحَ الله، ولكن لا أحد يعرف ما يريد فتحُ الله! فلم يزل سِرُّهُ في صدره، يَقْبَعُ في الأعماق مثل اللؤلؤ المكنون!.. ومن يدري؟ فلعله فارسٌ لم يشرق بَعْدُ زمانُه! ولاَ حَانَ وقتُه وإبَّانُه! وأي بلاء أشد على المرء من أن يعيش قَبْلَ أَوَانِه؟ ويعاشرَ غيرَ أهلِ زمانه؟

ولم يزل فتح الله يرسم ملامح الماضي في لوحة المستقبل، فينفخ فيه؛

فيكون واقعاً بإذن الله! كلما كَتَبَ مقالاً أو خَطَبَ خُطبةً؛ تشكلت كلماته صوراً لقوافل الصحابة الكرام، ولجيش محمد الفاتح، يزحفون صَفّاً من خلف غبار الغيم، مَطَراً يهطل من أُفُقِ بلاد الأناضول على كل العالَم!

فَتْحُ اللهِ لاَ يملك من هذه الدنيا سوى ملابسه القديمة، ومحفظة أحزان صغيرة تصحبه أنَّى حَلَّ وارتحل، لم يزل يحتفظ فيها بثلاثة مفاتيح عتيقة! الأول: مفتاح "الباب العالي" في إسطنبول، والثاني: مفتاح "باب الحِطَّةِ" في المسجد الأقصى، والثالث: مفتاح جامع قرطبة في أندلس الأشجان!

رجلٌ وحده يسمع أنينَ الأسوار القديمة، ونشيجَ الريح الراحل ما بين طنجة وجكارتا! وبكاءَ النورس عند شواطئَ غادرتها سفنُ الأحبة منذ زمان غابر، ولكن لم يشرق لعودتهم بَعْدُ شِرَاعٌ!.. فيبكي!

رجلٌ وحده يسمع صهيلَ الخيل القادمة من خلف السُّحُبِ، ونداءَ الغيبِ المحتجِبِ، إذ يتدفق هاتفه على شاطئ صدره، فينادي مِنْ عَلَى منبره: "ألاَ يا خيلَ الله اركبي!.. ويا سيوف البرق الْتَهِبِي!"..

ويَرَى ما ليس يُرَى.. فيبكي!

فتح الله سيرةُ بكاء! لقبه الأسري: "كُولَنْ"، ومعناه "الضحاك" باللسان التركي، وهذا من عجائب الأضداد، ومن غرائب الموافقات أيضا! فهو بَكَّاءُ الصالحين في هذا العصر، لكنه ما بكى إلا ليضحك الزمان الجديد، وليزهر الربيع في حدائق الأطفال. ما رأيت أحدا أجرى دمعا منه، ولا أكثر وَلَهًا.. وكأنما دموع التاريخ جميعا تفجرت أنهارها من بين جفنيه!..

ولقد أخطأ من ظنه يبكي ضعفاً أو خَوَراً، وإنما هو جَبَلٌ تشققت أحجاره عن كوثر الحياة الفياض، فبكى!..

الوعظ سر من أسرار فتح الله! فلم يزل منذ طفولته يبكي بمجالسه؛

فتبكي لبكائه كل عصافير الدنيا! ولقد رأيته يبكي طفلاً وشاباً، ثم كهلاً وشيخاً! ولم يزل يبكي ويبكي.. وما جف لتدفق شلالاته نَبْعٌ! بدموع مواعظه الْحَرَّى سقى فتحُ الله كل غابات بلاد الأناضول! وبها أروى عطش الخيل، وأطعم فقراء الليل! وبوابلِ بوارقها سقى كل صحاري العالم! ولقد عجبتُ من أي جبال الدنيا تخرج منابعه؟

ورحلتُ إلى طفولته؛ فلعلي أعثر على بدء تلقيه كرامات الأسرار وكيف؟

ولقد رأيتُ يا سادتي عَجَباً!.. كانت أسراب النحل تقتات من مَجْرَى مدامعه، فتنشئ آلاف الخلايا في كل مكان!..

.....

كان مَرَضِي قد زادني رَهَقاً، فرأيتُ في منامي مَرَّةً أنني أستقبل بنافذتي نحلاً، ثم رأيتني مرةً أخرى آكُلُ عسلاً؛ فعلمت أنني مُنَادًى، ثم امتطيت أشواقي وألقيت بنفسي في أحضان الرحيل!

منازل التحولات

هنا إسطنبول.. هنا معبر الفاتحين إلى كل أدغال العالَم!.. ما أن دخلتُ بين مآذنها حتى انتشى قلبي أملاً! لكنني لما اقتربت من جِسْرِ البُوسْفُورِ مَسَّنِي فَزَعٌ!.. كانت النوارسُ تضج في الفضاء بشكل مثير على غير عادتها..! فلم أَدْرِ أَعُرْسٌ هو أم محض عويل؟.. ومن يدري؟

أَبَكَتْ تِلْكُمُ الْحَمَامَةُ أَمْ غَـ ـنَّتْ عَلَى فَرْعِ غُصْنِهَا الْمَيَّادِ..؟

.....

هذا مَقَامُ تَغيُّرِ الأبْدَال.. ولِزَمَانِ التحولاتِ وَقْعُ الزلازلِ على المنَازِل!

كانت الأرض تدور بمنزلة ذات طبيعة أخرى، تتداخل فيها الشعاعات بين غروب وشروق!.. وكانت الريح تقصف ببرد قارس! وأسرابُ الحمام والنوارس تطير هاربة، لتحتمي من صقيعها تحت أضلاع المآذن والقباب!

كنتُ قابعاً بزاوية من زوايا سور القسطنطينية القديم، قريبا من باب المدرسة، أنتظر قدوم المعلم، حتى إذا بلغ العصفُ مداه انتفض بديع الزمان النورسي، وأطل من فوق قباب المدينة، ثم مَدَّ جناحيه العظيمين حول أسوارها حتى أحاط بجميع الأبواب! فظل كذلك زمناً يكابد وحده، ويجاهد قصف الريح وحده! وكلما أطل من تحت جناحيه ورأى سكون البلابل خلف القباب، دمعت عيناه في قَرِّ الريح! وصاح في تيارها الشديد:

"يا سعيد..! كن صعيداً حتى لا تُعَكِّرَ صَفْوَ رسائل النور..!"

حتى إذا هدأت العاصفة، قرأ سورة الفتح، ثم فتح الأبواب وانصرف!

ناديتُه بأعلى صوتي:

- يا سيدي المعلم! أمَا لآخِر الفرسان من عودة؟

التفتَ إليَّ بعبسةٍ ترسم ملامح الإنكار على صفحة وجهه المهيب! ورَمَانِي بنورٍ لاَهِبٍ من وهج عينيه! ثم قال:

- ويحك أيها الفتى المغرور! أما علمتَ أنَّ لكل زمان صاحبَه؟

- قلت: ومن يغلق أبواب الريح إذا هاج العصف من جديد؟

- قال لي: هذا مقام الفتح يا ولدي فليس لزمانه من إغلاق!

- قلت: عجبا يا سيدي! وما فَتْحٌ في زمن ليس تطيق عواصفَه الأبوابُ، ولا أسوارُ مدائننا القديمة!؟

- قال: ما أجهلك يا ولدي بزمانك! ارفع رأسك قليلا نحو الأفق الأعلى؛ تَرَ شمس البشرى ترتفع الهوينى من خلف الأحزان، وتَرَ كلمات النور الأولى ترسم بين يديها قوس قزح، وتطرز على موج البحر نبوءَتها.. فإذا كنتَ ممن يحسن لغة الماء فاقرأ: "تُفْتَحُ القسطينيةُ أوَّلاً ثم تُفتح روميةُ"!؟

- قلت: بأبي وأمي أنت يا سيدي! وما روميةُ؟

- قال: روميةُ يا ولدي امرأة ساحرة تسكن بين جوانحنا! هي عاصمة الشيطان الكبرى.. تنغرز قوائمها الأربع في بحر الظلمات! ولها في كل العالم أدخنة وحرائق! في كل يوم تُحَرِّقُ ألفَ عصفور وحمامة! جيش النور الآن تجرد لها بأسلحة من وهج الشمس، وأميرُه يرتل من خلف الغيب سورة النصر، خاتمةً لمحن المستضعفين!.. وقريبا جدا سترى عجبا! جيش النور اليوم في كل العالم يقتبس من مشكاة الليل الأخضر زاداً للسير! فانظر ما حظك من مواجيده يا ولدي!

- قلت: وما سيماء أميره يا سيدي؟

- قال: لا تتعب نفسك يا ولدي في طلب الألقاب! فإنما هو طيفٌ، أو معنى، أو روح! بل هو قلبٌ من نور وهاج! هو جيش من ذَوْبِ الشمس، هو أشجانُ قلبٍ وترانيمُ روح، هو مكابدةُ حُبٍّ لم يزل جرحه ينزف من خابية مشقوقة! هو آهاتُ أشواقٍ ارتقت ما بين سجود وركوع، فتشكلت في الفضاء غيمةً ربيعيةَ اللون، مكتنزةً بالخير وبالبركات! لم تزل تهطل بالغيث في كل قارات الأرض! فَارْقُبْ إن شئت حدائقَها أنَّى رحلت؛ تجدْ وردتَها متفتحةَ الأجفان ندية!

- قلت: فما نَسَبُهُ ومكانُه؟ ما مولده وزمانُه؟

- قال: ويحك يا صاح! أما صاحب هذا الزمان فله مولدان اثنان! أولهما هو في المكان، وقد كان الذي كان. وأما الثاني فإنما هو في الزمان! فَارْتَقِبْ إبَّانَ هيجانِ الجرح، يومَ تأتي الرياح بحداء الأنين! فإنه لا ميلاد إلا بألم! واظفر بثاني المولدين تَرِبَتْ يداك! إنك يا ولدي إن تدرك إشراقتَه تكن من الفاتحين!

- قلت: فهل لي أن أكون من طلائعهم؟

- قال: بل دون إدراك منازلهم كلمةُ سِرٍّ مخفية في حوصلة الطير!

- قلت بلهف: أي طير يا سيدي؟

وانقطعت التجليات!

.....

ثم مكثت عاما كاملا بعد تلك المشاهَدات! أنتظر المزيد ولا من مزيد! ورجعتُ إلى وطني أنتظر الإذن بالرحيل مرة أخرى إلى بلاد النور!

* * *

ما بين طنجة وجبل طارق، يَرْقُدُ بوغاز الأحزان!.. لم تزل نوارسُه كلَّ مساء تحكي بنشيجها الشجي مأساةَ الموريسكيين! لا شيء يحمل البوغازَ على تغيير عادته، فأحلامُه تُرْسِلُ موجةً نحو الشمال، لكنَّ مواجعَه تردها كسيرةً نحو الجنوب! والحِيتَانُ بينهما تغدو خماصا وتروح بطانا من لحم الإنسان! كنت أسير حافي القدمين ما بين طنجة وتطوان؛ لعلي ألتقط صوت حمام زاجل، قيل لي: إنه لم يزل ههنا مُذْ عَبَرَ أميرُ غرناطة الأخير طريداً من جنته! فرثاه هذا الحمام الغريب بكنوز من أسرار الحكمة! قيل لي: إن له هديلا كلما انطلق شجاه اقشعرت له صخور الشاطئ! وبكت النوارسُ واهتاجت الأمواج!

قلت لفتاي: ويحك يا ولدي! ذلك ما كنا نَبْغ! إنها إذن كلمة السر الخفية! ارجع بنا فلعلي أفوز بإشارتها أو أفك طلاسمها! وعسى أن أقرأ فيها ميلاد أندلسٍ بمنزلة أخرى، ما زلت أحتفظ بصورتها في قلبي منذ غروب الشمس عن أبراج مدائنها! لكنها صورة ذات تجليات أخرى، لم يزل فارس الزمان الجديد يرسم معالم حدائقها بقلبي وردةً وردةً، ويهيء أشواق الروح بمساجدها دواءً لأوجاع العالم! حتى قيل: إنه لن تسكن أحزان البوغاز إلا على أصداء مآذنها!

وارتددنا على أوجاعنا قَصَصاً.. نبحث بين الصخور والأشجار عن أمَارةِ عُشٍّ أو ريشٍ ولا نجد له أثراً.. حتى كان ذات صباح..!

كانت الريح تهب نسيما ربيعيا، وأشعة الشمس ترتفع الهوينى نحو ضحاها، فترسم على ضباب البحر الخفيف أقواس قزح لا تتناهى!.. وفجأة انطلق الحمام يغرد يا سادتي من مكان ما، مكان لا أستطيع تحديد مواجعه! كانت مقاماته على أوزان الأذان! حاولت مرات تبين جهته فلم أستطع! أما المساجد فقد كانت أندلسية المعمار، وأما البكاء فقد كان تُرْكِيَّ الترسيل.. وكانت الآهاتُ تُرَجِّعُ أصداء مآذن إسطنبول وخلجانها! فتشربها مساجدُ فاس شهقةً شهقةً، وتبكي!

وتلقيت الإشارة، فرأيت عجبا! ثم دخلت بمنزلة الحيرة!

قال لي: هذا زمان موت الجغرافيا وانبعاث التاريخ!.. كلمة السر يا ولدي هي في نُطْفَةٍ من نور، تخرج من بيت النبوة! وإنها هنالك في شرق الأناضول فارحل!

* * *

هذه إسطنبول مرة أخرى..! ناداني خاطرٌ حزين! قال لي: مقامك حيث

أقامك! لا مكان لك اليوم يا صاح إلا بمنزلة الاستغفار! فصرت أسمع صوتا من أعماق فؤادي، يتكسر موجُه هوناً على شط لساني: رب اغفر لي..! رب اغفر لي..!

ها أنا ذا محمول على سيارة، كنت مريضا جِدّاً! لكني كنت على وعي بما أسمع وأشاهد.. كل شيء أدركه الآن، هذه الطريق الكبرى وسط إسطنبول، وهذه قبابها ومآذنها عن اليمين وعن الشمائل، تلقي بأنوارها في كل اتجاه.. وهذا هو الجسر العظيم، هو جسر نُصِبَ حديثاً، لكنه منصوب على تاريخ الفتوح بين آسيا وأوروبا! فلم يزل بعد ذلك قنطرةً لعبور النور الجديد إلى المستقبل! وهذا... آهٍ! هذا مستشفى "سماء" مرة أخرى!.. وهنا أدركتُ للتو مقامي! وعرفتُ أنني قد أخفقت في الامتحان الأول! فاستأنفت دروسي بفصول المدرسة الأيوبية من جديد!

سنة كاملة يا سادتي وأنا أجري بين غروب وشروق! سنة كاملة وأنا أظن أني كنت أغسل أدران الروح عن بدني، ولكني اكتشفت الآن أنني لم أبرح مكاني! فعدت مثقلا بكل ذنوبي! لقد أخطأت الطريق إذن! فكان الحكم أن أعيد الدرس من البداية! فالرحمةَ الرحمةَ يا الله!

كان رأس السرير ميمما نحو القبلة، وكانت النوافذ الكبيرة مشرعة الأحضان على بحر مَرْمَرَة، والْجُزُرُ الخَمْسُ وَسَطَهُ كلها تنتصب أمامي كالأعلام.. كانت الشمس على وشك الغروب خلف قَدَمَيَّ، وكانت أشعتها تطرز مَرْمَرَةَ بمرثية الأشجان! وترسل إليَّ أهازيج من أذكار المساء، مُرَتَّلَةً عبر أوراق شجرة الدُّلْب المنتصبة خلف نافذتي! حتى إذا مات النهار شاهدت جنازتي ترتفع أمامي في أفق البحر الغارب، وتذكرت صلاتي! أَدَّيْتُ العشاءين جمعاً وقصراً؛ استباقا للحظة الوصل، ثم بكيت! كان الليل

قد أشرقتْ مواجيدُه سُرُجاً تتلألأ في جزر البحر، وكانت مصابيح الساحل تحلم خافقة بشيء ما.. وغمرني الحنين إلى أورادي، فما أن شرعتُ في ترتيل مواجعها، حتى انهمرت على قفاي صفعاتُ الرحمة تترى! هي رحمة نعم لكنها صفعات! وكان الألم يا سادتي شديداً!

ثم تذكرتُ.. آه! واسترجعتُ الدرسَ: لا ميلاد إلا بألم! فاظفر بثاني المولدين تَرِبَتْ يداك! ثم ناديت في ليل البحر الساجي: الرفقةَ الرفقةَ! يا نِعْمَ الأميرُ أميرُها، ويا نِعْمَ الجيشُ جيشُها!..

ألم يقل لي: هذا زمان نهاية الجغرافيا وميلاد التاريخ!؟

نعم ولكنْ، رِفْقاً بقلبي الضعيف عن الطيران! فإنما شأني أن أحتضن مواجيد المكان منزلةً منزلةً؛ عسى أن أبحر من موانئها بَعْدُ في مقامات الزمان! ذلك ما يقتضيه عجزي الحالي، فليس للمريد مثلي إلا أن يجلس متعلما بمقام الأدب!

هذه واردات النور تتدفق جداولُها بين يديك الآن يا صاح!.. فاحمل عصاك على كتفيك، وارحل سائحا نحو شرق الروح؛ بحثا عن منابعه الأولى! فلعلك تدخل زمان الفتح، وتكتشف سر بكاء فتح الله؛ فَتُشْفَى!

* * *

كانت غرفتي تنفتح على غرفة أخرى سكنها مرافقي. لم يكن مرافقا عاديا بل كان صاحب أحوال! قدموه لي على أنه ترجمان لغة، لكنه كان ترجمان روح! كان يتقن لغة الإشارات، ويفك طلاسم السلوك! ما رأيت فتى عميق الغور أَنْكَرَ لنفسه منه! مَنْ أخذه على ظاهره أضاع كنزاً ولا كأي كنز..! كان وجها شرقيا، يتكسر الحزن الجميل على ملامحه أبداً، ولعينيه الراحلتين في بحر الغيب هيبةٌ وجلال! له تجليات يحضر فيها حينا

ثم يغيب أحيانا أخرى، فلا يُدْرَى له بعد ذلك مكان! ما بين سواد شعره وعينيه يشرق بياض جبينه الوضاء، فجراً صادق القسمات، لم يزل يبشر -رغم ما يكابده من أسى- بالخير والبركات!

ولعله سمع بخاطره الحساس صراخَ روحي الصامت؛ إذ طلبتُ رفقةَ أمير الفتح؛ نداءً خفيا من عمق ضميري!.. ومن يدري؟

فتح البابَ عليَّ بأدب مستأذناً.. كان الليل قد سَجَا جمالُه، وهجع طيفه وخياله.. وكان عند رأسي مصباح خافت صغير، ينبض الهوينى في فضاء الغرفة، وينفث عجائبَ الألوان والأشجان.. قال لي:

- عفواً.. هل من خدمة؟

طالعتُ ملامح وجهه الحزين، وأبصرتُ أثر الدمع نديا على مقلتيه.. فأدركت أنني قد أخرجته على التو من سبحاته الروحية، وشعرت بالندم! فقدَّمت بين يديه بعضَ عبارات الاعتذار المرتبكة، ثم سألته: ماذا قال الطبيب؟

صمتَ قليلا، ثم تمتم ببضع كلمات لم أتبين لها معنى، ثم سرح بعينيه عبر النافذة، متأملا أنوار جُزُرٍ مرمرة.. ربما كان قد مضى من الليل نصفُه أو كاد.. فصار للسكون على العالم سلطان رهيب.. نظرت إلى عينيه الراحلتين بعيداً، ثم سألته نزلةً أخرى، لكن هذه المرة بنظرة صامتة لم تنزلق إلى نزق لساني: عفواً هُوجَمْ!.. ماذا قال الطبيب؟[1]

وانتفضت جوانحه بقوة لكنه لم ينْبسّ ببنت شفة! بيد أنني يا سادتي سمعت الكلام ينطلق متدفقا من بين جوانحه، وكأنما هو صدى لهاتف يتنزل عليَّ من العالم العلوي!

(١) هُوجَمْ: كلمة تركية تعني: أستاذي، أو سيدي.

- قال لي: جسمك مرتبك جدا يا صاح! لكنما هو رَجْعٌ كسيرٌ لصورة الروح في خابيتك الكسيرة! أما الأطباء فلهم مسالكهم إلى طينك المسنون، وأما من يسلك فيك نحو جراحات الروح.. آه! أما مَسْلَكُ الروح إلى مواجعك يا صاح...آه!

ثم سكت!

وبعد أن أرسل نحو النافذة زفرة عميقة قال: والعلة الأولى يا صاح إنما هي من هناك!؟

وأصابني الفزع يا سادتي! ثم قلت:

- بأبي وأمي أنت أيها الوجه الغريب! قل لي: كيف يكون دوائي إذن وأنَّى أجده؟

ثم رحل في الأفق مرة أخرى، حتى لكأنما قد فارق هذا العالم، وأرسل تنهيدة لاهبة، تدفقت زفراتُها الْحَرَّى على نفَسٍ طويل! ثم قال:

- دواؤك أيها الرفيق العليل هو في العثور على لؤلؤة سِرّك!

- لؤلؤةُ سِرّي؟ وما أدراني ما لؤلؤةُ سِرّي؟

- قال: إنها لآلِئُ في صدفات زمردية، تنبت هناك في أعماق بحيرة الأسرار!

- قلت: حيرني أمرك والله يا فتى!.. وما أدراني ما بحيرة الأسرار؟

- قال: هي بحيرة تجمعت مياهها من دموع الصِّدِّيقين! دون الوصول إلى حِمَاهَا الندي، والإشرافِ على شواطئها الجميلة سبعةُ جبال، على كل جبل منها سبعون قمة!

لم تزل ترفدها منذ قديم الزمان دموع الحواريين، وأشجان الصحابة الكرام، ومكابدات النُّسَّاك المتعبدين، وزفرات أويس القرني، وبكاء الحسن

البصري، وشهيق أبي العالية الرياحي، وأسرار الإمام الجنيد، وأنفاس بشر الحافي، ومواجع الحارث بن أسد المحاسبي، ومواعظ الإمام عبد القادر الجيلاني، ومجاهدات الشيخ أحمد زروق الفاسي، ومواجع عبد الواحد بن عاشر الأندلسي، ومشاهدات بديع الزمان النورسي!

ولم يزل في كل عصر يرفدها بنشيج الشوق اللاهب صِدِّيقٌ أو شهيد!

قال لي: هناك في حِمَى بواديها، على جانب شاطئها الأيمن، يقف اليوم فتح الله! ومِنْ خلفه تصطف آلاف الجياد الأصيلة، تبيت الليل منسدلة الأعراف، خافضة جباهها الغراء نحو الثرى، في إخبات يخرق معايير الزمن ومنازل الساعات! ومن حين لآخر تراها في سُدُمِ الظلام الصافي تَصْفِنُ بقوائمها الْمُحَجَّلةِ إلى أعلى، وربما غطستها في ماء البحيرة أحيانا، ثم تكرع من ماء الحياة كل فجر، وترسل دموعها الحرى برداً وسلاماً على العالمين، مصغية بآذانها اللطيفة، في انتظار صيحة الأذان! وثمة حواليها آلاف الأطياف تغوص نحو أعماق البحيرة، بحثا عن الصدفات الزمردية، وآخرون على الشاطئ يفتحون ما مَنَّ الله عليهم به منها، فيلتقطون ما يجدون بها من أسرار..!

فجرد عزيمتك يا صاح لاجتياز جبال الطريق! وإنها لمسالك ذات محالك ومهالك! وإنما أمان العبور نظرٌ في أعطاف جسمك الثقيل؛ تخففا من زوائده، وتقللا من خبائثه. ولا إمكان لذلك كله إلا بمقاطعة قيود الشهوات، والتحرر من أَسْرِ الآفات، والخروج من مضايق العادات؛ توبة نصوحاً، تنتشلك من دركات ما فات، وترفعك إلى درجات ما هو آت؛ عسى أن تكون أهلا للتحليق بجناح المتخففين! فإنه لا عبور لجسم ما تزال شحوم الشهوات تخنق شرايينَه!

نظرتُ إلى رفيقي فقلت مستعطفاً:

- فكيف الاتجاه إذن؟

- قال: وهل ثمة نور يطلع من غير الشرق؟ ثم رفع يده إلى أعلى وأشار..! قال لي: هناك تجد رائدَ الرحلة إلى بحيرة الحياة في هذا العصر، وإمام السائرين إليها في هذا الزمان! وإنما جُعِلَ الإمام ليؤتم به، "وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِير!" فتجرد من طينك يا صاح ثم ارحل!

لِقَاحُ الرُّوحِ

شرق الأناضول له رائحة أخرى.. قيل لي: إن دواءك هناك! فثمة بحيرةُ "وَانْ" الجميلة، تَعْرض جَوانحها مَجْمَعَ بحرين لطالب الحكمة، ومغتسَلاً أيوبيا للمرضى والمحزونين!

بحيرةُ النور مملكةٌ تحتضن التاريخ القديم، وتُعَلِّمُ الطيرَ المغرد ببساتينها أناشيد الروح المفعم بمكابدات الأنبياء! لم تزل قُراها الصغيرة تكتنز بالأسرار: وَانْ، وتَطْوَان، وأَخْلاَط. وغير بعيد عنها نحو الجنوب الغربي تتلفع مدينةُ بِتْلِيس بالحشمة والوقار، وتتخفى قريةُ نُورْس بين بساتينها في خمارها الجميل.

بحيرةٌ ولا كأي بحيرة! طاهرة مطهرة! آية تفيض بالجمال والجلال! عبابها العظيم يمتد من الغرب نحو الشرق، في هيأة طائر أسطوري، يحكي عصر الديناصورات وملحمة العنقاء! رأسها الذي يحمل عرفا كبيراً كعرف الطاووس، يرتفع نحو الشرق عاليا، مستشرفا شلالات "مُرَادِيَا" القريبة، ليرقبها وهي تتدفق من أعالي الصخور المعشوشبة الجميلة. ومن خلفها

تَرَفْرَقُ البحيرةُ بأجنحتها وتتوثب، كأنها تتهيأ للتحليق بعيداً، حتى تحط فوق ثلوج جبل أَرَارَات العظيم!

هنا بهذا الشرق القديم يرتفع سطح تركيا، وينتصب رأس بلاد الأناضول عاليا! مسالكُ برية وعرة، وجبالٌ لا تزال على فطرتها! مرتفعاتٌ لها قصص من الملاحم النبوية القديمة، وحكايات من البطولات القَبَلِيَّةِ لشعوب شتى، وقصص أخرى لا تكاد تنتهي!

كل شيء هنا متميز، ولكل تميز فرادته! إلا أن فرادة مدينة "أخلاط" شيء آخر تماما! فبموقعها شمالَ غربي البحيرة، منحنيةً بدلال فطري، على مياهها الزرقاء، تبدو كأنها حاجب أنيق على عين حسناء! عزيزة مصونة، تنتصب مبانيها بين مسالك جبلية، ذات ثلوج ومروج، مما جعلها عبر التاريخ مَعْبَراً طبيعيا بين الشرق والغرب، لأجيال من القوافل، وشعوب شتى من الغزاة، منذ عصور ما قبل الميلاد إلى العهد العثماني الأخير..! كل ذلك جعلها سجلا حافلاً لحقب شتى من التاريخ الإنساني! ولذلك لم تزل تتنازعها القبائل والإمبراطوريات، إلى أن وقعت بيد الأتراك المسلمين -منذ القرون الهجرية الأولى- فكان لها تاريخ جديد، وميلاد جديد. ولم تزل منذ ذلك الحين تتدرج بمنازل المعاني ومقامات الروح، ما جعلها مصدراً ثَرّاً للحياة المتجددة!

ومن ثم لم تزل "أخلاط" خليطا متناسقا من الشعوب، وفسيفساء مزركشة بألوان مختلفة، ولغات مختلفة، تركية، وفارسية، وكردية، وعربية، وأرمنية! وألوان أخرى من لغات الجن، تلقي بها الريح كلما عزفت أحزانها بين شماريخ الجبال!

لكن الجامع لكل هذا التنوع العجيب، إنما هو تلك الروح التي عبَرت

نحو شرق الأناضول، قادمة من منابع النبوة المحمدية، هناك في واحة يثرب، مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام! حتى أشرقت أنوارها هنا على هذه الجبال الأبية! ومن حينها لم تزل شلالاتها العالية تتدفق بالهدى والنور على تركيا كلها.. ومن هناك امتدت شرايين الإيمان إلى القسطنطينية، ثم إلى أوروبا الشرقية حتى أسوار فيينا!

فمنذ أوائل القرون الهجرية، هاجرت حمائمُ وصقورٌ من آل بيت النبوة، تجنبا لفتن جزيرة العرب، شَامِهَا وعِرَاقِهَا، فحطت رحالَها بمسالك شرق الأناضول الوعرة، واستوطنت جبالها ومروجها؛ بحثا عن مكان آمن لا تصله عيون بني أمية وبني العباس! فكانت هذه الأسر النبوية الطيبة لقاحا روحيا لقبائل الأتراك الأشداء! ومن اجتماع يقين الإيمان وشموخ الجبال، تَخَرَّجَ الإنسان التركي الجديد، رجل الفتح المبين! جامعا بين تجليات الجمال قلباً ووجداناً، وبين تجليات الجلال عزائمَ وأبداناً! فكان من تاريخ الدولة العثمانية ما كان!

في عمق ذلك التاريخ كانت نُطْفَةٌ من سُنَّةِ آل البيت تتنقل بين الْمَهَاجِرِ والْمَنَافِي، جيلاً بعد جيل، حتى تفتحت وردتُها في أسرة "آلِ كُولَنْ" التركية! من بذرة أصيلة، كان لها منذ قرون شجرةٌ باسقة الأغصان، تنتصب ثابتة في قرية "أخلاط" الجميلة! ولم تزل كذلك حتى كانت فتنة وشجار بينها وبين غيرها من الأسر، في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، حيث اختُطفت إحدى أخواتهم، فانتفض أخوها السيد "خليل الأخلاطي"، أحد أجداد "آل كُولَنْ" الأوائل، وقاتل دونها حتى أثخن في الغاصبين، وقتل منهم ما قتل! وعظم الخطب بين القبائل! فأدى ذلك إلى تدخل السلطان، وحكم على السيد خليل هو وأسرته بالنفي إلى "حِصْنِ قَلْعَة"، إحدى قرى

ولاية "أَرْضَرُوم" في شمال بلاد الأناضول! لكنَّ "خليلا" لم يلبث فيها إلا قليلا، ثم هاجر إلى قرية "كُرُوجُكْ" بنفس الولاية. وهناك استقرت الأسرة، وضربت مرة أخرى بجذورها في تربتها.

ومن هنا اشتهر نسب أسرة "آلِ كُولَنْ" إلى أَرْضَرُوم على الإجمال، وإلى قرية "كُرُوجُكْ" منها على الخصوص؛ لِمَا تَعَاقَبَ عليها فيها من الأجيال جُدُوداً وحَفَدَةً. ولم يترك "آلُ كُولَنْ" قريتهم المفضلة تلك بعدها إلا لفترتين، الأولى عندما نزح الناس عن أَرْضَرُوم كلها، إبان هجوم الروس عليها أواخرَ القرن التاسع عشر. فهاجرت الأسرة إلى قرية من قرى "سِيوَاس" في وسط تركيا. حتى إذا وضعت الحرب أوزارها عادت مرة أخرى إلى "كُرُوجُكْ". ثم تركتها للمرة الثانية، عندما اشتعلت نيران الحرب العالمية الأولى، فهاجرت هذه المرة إلى قرية من قرى منطقة " يَرْكُويْ" التابعة لمحافظة " يُوزْغَاط". ولبثوا فيها بضع سنين حتى انتهت الحرب، ثم عادوا مرة أخرى إلى قريتهم المفضلة بأرضروم: كُرُوجُكْ. ولم تزل الأسرة بها تتوارث مقامات عالية من العلم والصلاح، ومنازلَ نادرةً من أخلاق الزهد والعفاف! فكان أغلب رجالها ونسائها بين الناس، مناراتِ هُدى، ومعالم صلاح.

ثم جاء فتح الله!

هنا قرية "كُرُوجُكْ"، بادية من بوادي مدينة أرضروم الجميلة، هنا لم يزل دَمٌ عربي يتناسل محملاً بأحزان التاريخ وأفراحه.. دَمٌ لم يزل عَبَقُ النبوة يفوح من بين شرايينه، يُوَثِّقُ بزهوره الجريحة انتسابَه إلى آل بيت

رسول الله، عليه الصلاة والسلام.. دمٌ لم يزل يحمل أشجان النزيف الذي كان، وصرخات التقتيل والتشريد..! كانت نَسَمَةٌ من نور، تتنقل مكنونةً بين أصلاب آل كولن منذ أمد بعيد.. ولم يُقَدَّرْ لها أن تشرق على عالم الدنيا، إلا بعد انسلاخ أكثر من ثلث القرن الميلادي العشرين. كانت الأرض ساعتها قد ارتدَّت على أدبارها، وبلغت من جاهليتها ما كاد ينذر بخروج الدجال الأكبر!

كانت الريح قد هبت هذه المرة غربية العروق! وانطلقت من جبال الكفر القارس! مسلحة بمخالب الذئب الأغبر، وأنياب سباع الاستعمار، وسموم أبناء الأفاعي.. فاكتسح الموت الأزرق كل مدائننا، وجعل أشلاء جسومنا مِزَقاً...!

حتى كان اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر، من سنة ١٩٣٨م.. حيث كان السيد "رَامِز كُولَنْ" على موعد مع الرحمة الإلهية، إذ وُلِدَ له "محمد فَتْحُ اللهِ كُولَنْ"!.. وبمولده وُلِدَ معنى جديد للحياة في بلاد الأناضول! فقبل هذا اليوم بيوم واحد فقط، كان قد مات "أتاتورك"! ثم نشأ "فتح الله" بعده يتدرج بمنازل الفتح، عبر حياة غير عادية تماما! حياة تملؤها أحوال عجيبة من مشاهد الغرابة، ومنازل شتى من ضروب المجاهدات الروحية، والبطولات الجهادية، تُذَكِّرُ بكرامات الأولياء الكبار، وأمراء القصص والأساطير، وأبطال التاريخ القديم!

ولم يكد الفتى يصل سن البلوغ، حتى احتضنته المساجد العثمانية في كل مكان، وخفقت قبابها بنشيجه العميق! وبدأت الطيور والعصافير تأتم به في صلاته وأذكاره! ثم انطلقت النوارس تحمل أصداء بكائه إلى كل بلاد الأناضول، فتوقظ الأنفس الوسنى، وتحرر الأرواح السجينة

من قماقم الفخَّار! ولم يزل يرتقي بمنازله حتى حَدَّثَتْهُ الحوادثُ بلغة الإشارات، وألقت إليه الحمائمُ بالنُّذُرِ والبِشَارَات! ثم تدفق البوسفور من بين أصابعه جداولَ من نورٍ تسقي كل العالم!

كل الإشارات إذن تدل على أنه هو!.. فهذا صاحب طريقك يا قلبي.. فابحث عن كلمة السِّر أنَّى تلقَّاها وكيف؟ وفيمَ أَلْقَاهَا ومتى؟ عساك تفوز بفك رموز رؤياك القديمة! ففتح الله له سِرٌّ ليس يبوح به، ولكنك لو تصادف من صحبته "وَقْتاً" تتلقى منه إشارة! وفتح الله رجل له "أوقات"..! فاصحبْ ظِلَّهُ يا صاح تَرَ عجباً! فإنك إنْ تَعْثُرْ على بذرة الدُّلْبِ تملكْ غابتها! فاصبر على نَصَبِ الطريق وانطلقْ!

مَحَاضِنُ الروح

حدثني راوي الأشجان قال:

محاضن الطفولة هي مزارع الأسرار.. في تربتها تُدفن بذور النور، وخريطة الفتح الآتي، ومواعيد الزمان الجديد! ومن يدري؟ فلعلك هناك تتعلم من "فتح الله" كيف تكون رجلا! ولعله يضرب لك موعداً من لثغ طفولته لزحف الخيل الصافنة خلف غيوم إسطنبول، ومواعيد أخرى لدخول عواصم دول العالم، وعبور البوغاز إلى أندلس الأحزان.. وخوضِ بحار أخرى في وجع الليل؛ فرومية ما زالت جثتها تجثم فوق فراخ فلسطين! وليس بين دخول المارد قمقمه وبين شروق الشمس، إلا كلمة سر!.. ولعلك يا صاح تكون هناك!

قال لي: هي مَحَاضِنُ لا تتاح لكل الناس.. إنها من تهييء القَدَرِ الإلهي،

لمن شاء الله أن يجعل لهم من أمره قَدْراً! فما جاء وَلِيٌّ أو مجددٌ إلا على قَدَرٍ، وما فاض نهر إلا بعد هُطُولِ مَطَر! فاحمل عصا سياحتك يا ولدي وارحل! فما كان للسائح في فلك النفوس الكبار إلا أن يعود كبيراً!

الْمَحْضِنُ الأوَّلُ: صُحْبَةُ جَدٍّ ومكابَدةُ تاريخ!

الثلج هو سلطان الفصول في مدائن أَرْضَرُوم وقُرَاهَا! ولفصل الشتاء امتداد يبتلع كل الفصول الأخرى إلا قليلا من الصيف! فلم يكن للبرد الشديد هنالك من مُغَالِبٍ بين منازل الرياح، إلا ريح واحد.. كان كلما هب لهيبُه أحال جبال الثلوج القاسية دموعا تبكي شجاها، فتستسلم لربيعها في عز الشتاء! وبأي بَرْدٍ يستغيث البَرْدُ إذا ألهبته مواجيدُ الرجال؟ أو إذا هبَّت عليه في غسق الدجى تباريحُ الأبدال؟!

كُرُوجُكْ كانت هناك.. قرية غير عادية! فيها تكونتْ محاضنُ "فتح الله"، وفيها تفتحت وردةُ الزمان الجديد. ومن هناك امتطى الفارس صهوة النور، ركضا نحو غزو جحافل الظلام!

كان البيت واحداً وكبيراً، فقد اجتمع فيه سبعة أولاد وجمعٌ من الحفدة، ائتلفوا جميعا كأغصان شجرة واحدة، تستند إلى جذع واحد. بيد أنه قد تميز من هذا الجمع الأسري الكبير عملاقان وشِبْلٌ مُتَوَثِّبٌ! أبٌ وجَدٌّ وحَفِيد. وارتبط الحفيد بجده قبل أبيه! ودخل تحت جناحه الكبير في صحبة روحانية غريبة، كان لها أكبر الأثر على شخصيته القيادية بعدُ!

نظر إليّ الراوي ثم قال:

أما هنا فيعجز السرد عن وصف هذا المقام العظيم! فلندع عبارات الحكي العقيم، ولنطرق باب المشاهدات! فارفع حجاب الكلمات يا صاح وانظر:

هذا "شَامِل آغَا" اسم على مسمى! فالشخصية الشمولية لهذا الجد العظيم، كانت مجمعا لحقائق الروح اللطيفة، ولصرامة الفروسية الشديدة! كان رجلا قويا مهيبا حتى وهو في شيخوخته! لم يزل يلف عمامته الكبيرة في جلال، مثل السلطان عثمان غازي مؤسس الدولة العثمانية! وما كان يضعها عن هامته قط! ولا رآه أحدٌ -ولا حتى من أسرته- حافي الرأس حاسِراً! فقد كان في أشواقه وأحواله رجلا أخرويا عجيباً، مسكونا بالمعاني الكبار!

كان الطفل "فتح الله" يرقبه ويتأمله، ويلتقط منه المشاهد والأحوال، مما ينسج به رجولته الناشئة.. وإنه ليذكر -مُذْ درج بين يديه طفلا صغيراً- أنه ما رآه يضحك أو يقهقه قط! وإنما ربما تبسم تبسما! مما جعل له في قلوب أهالي القرية مهابةً عظيمةً، وتوقيراً كبيراً. فلا أحد كان يجرؤ على مَسّ جدار حَرَمِه، ولا الاقتراب من عِرضه وعرينه!

وبميزان جديته العالية كان يقيس العلماء والمشايخ! فيحترم أهل الصدق منهم، ويحتقر مشايخ الولائم والموائد! أو "جماعة الأرز" كما كان يسميهم! لقد كان أبوه "مُلاَّ أحمد" حفيد السيد "خليل الأخلاطي"، مرجعَه الأساس في معاني الولاية والزهد، إذ كان رجلَ علم، وصاحب مقام إيماني عالٍ، ليس من السهل أن يدخل المرء مسلكه! لم يكن يستغل عِلْمَهُ للتكسب، ولا صلاحَه ونسبَه لجمع المال، ولا كان يسأل الناس شيئا، بل لم يكن يقبل حتى الهدايا! كان قواما صواما، قليل الأكل والطعام، وربما اكتفى في كل يومه بحبات زيتون مع أنه كان من الأغنياء، فقد أغناه الله بإرث عظيم من أبيه، ذهباً كثيراً تقاسمه مع أخيه بالطاسات السلطانية حتى صار ذلك حديثَ الناس زمناً! ومع ذلك فلم تنل الدنيا من زهده الصارم شيئا!

كان "مُلاَّ أحمد" -الجد الأعلى لفتح الله- رجلا قوي البنية، طويل القامة، مهيب الطلعة. وكان مضرب المثل في الورع، ففي الثلاثين عاما الأخيرة من عمره تفرغ لله تماماً؛ حتى إنه ما مدَّ خلالها جسده نائما على فراش قط! وإنما كان إذا داخله النوم يضع يده اليمنى على جبهته ويسنو لحظات! ثم يستيقظ بعدها إلى العمل في المزرعة، أو إلى العبادة، أو إلى السياحة في ملكوت مكتبته الفسيح، مطالعةً طويلةً لا يجرؤ أحدٌ على إخراجه منها، إلا نداء الصلاة!

تلك كانت رسائل تلقاها "فتح الله" من حكايات جده "شامل آغا" عن جده الأعلى، جَدٍّ بقيت آثاره مستمرة في زهد الأسرة كلها وورعها، فاكتسب الفتى من أخباره فحولةَ أهل المقامات العالية!

وارتفعت بذلك مقاييس "شامل آغا" عاليا! فلم يكن يقبل مِنْ مدعي الولاية والصلاح مَنْ لم يكن على هذا الوِزَانِ! وفشل بذلك "أولياء الأرز" أو "شيوخ الخبز" في اجتياز هذا الامتحان! فما فاز أحد منهم باعترافه!

ولم يبق من رفقائه في مسلك السير إلى الله، إلا قلة نادرة من أهل العلم والصلاح، كان من بينهم إمام مسجد القرية، الشيخ "محمد أفندي". فهذا الإمام كان رجلا صالحا، قضى زهاء أربعين سنة يصلي بالناس هناك! وكانت له في قلب "شامل آغا" محبة خاصة واحترام كبير. كان صاحب تخلية وتحلية، ورجل رؤى وكرامات صادقة! ولم يزل الجد شامل يقص لحفيده من ذلك قصة الزلزال الشديد الذي ضرب المنطقة قبل الحرب العالمية الأولى، فلم يبق منزلٌ بالقرية إلا صار حطاما! اللهم إلا أطلالا هنا وهناك! فصار الناس يبيتون الليالي بالبيادر حذراً من معاودته! ولم يزل الأهالي كذلك أياما وليالي، حتى أرعد فصل الشتاء، ورمى العراءَ

بوابل الثلوج! ثم انطلقت سباع البرد تعوي في كل مكان! واشتد البأس على الناس فجعلوا يلتجئون إلى الأدعية والأذكار يستدفئون بها، ويُدَثِّرُونَ بها أطفالهم من قَرِّ البيادر والسهوب! ولم يزالوا كذلك حتى كانت ليلة البشرى..!

كان "شامل آغا" يستدير بخطوه الوئيد نحو أسرته المخيمة بالبيدر، عندما استوقفه الإمام "محمد أفندي" قائلا:

- إلى أين يا سيد شامل؟

فأجاب الرجل بنوع من الأسى: إلى البيدر!

فتبسم الإمام وقال: أبشر! فلا زلزال بعد اليوم إن شاء الله! يا قَوْمُ ادْخُلُوا مساكنَكم وناموا بأمان! وإذا سقط عليكم حجر واحد فادمغوا به رأسي!

وعجب الرجل من هذا اليقين الجازم، فقال مستفهما: وكيف وصلت إلى هذه الحقيقة يا إمام؟

وهنا غابت بسمة "محمد أفندي" من على محياه، وارتسمت محلَّها معالِمُ من أحوال الرهبة والجلال! فنظر في وجه صاحبه مليا، ثم انطلق يقص عليه رؤياه بإيمان عميق:

هذه الليلة قَدِمَ إلى القرية نبي الله محمد ﷺ، كان وراءَه الخلفاءُ الأربعة رضي الله عنهم. وكان سيدنا علي ﷺ يحمل في يده بضعة خوازيق.. فما أن أبصرتُهم حتى انطلقتُ نحوهم أسعى، واقتربتُ حتى كنتُ قاب قوسين أو أدنى! فالتفتَ إليّ رسول الله ﷺ وقال لي: مُلاَّ محمد! قلتُ: لبيك يا رسول الله! قال: هل هذه القرية لك؟ قلت: نعم يا سيدي! فتوجَّه -عليه الصلاة والسلام- إلى سيدنا علي، وقال له: يا علي! وفي هذه القرية أيضًا

وَتِّدْ خازوقاً! فوتَّد سيدنا علي -كرم الله وجهه- إحدى الخوازيق هنا في هذا السهب حتى لا تهتزَّ الأرض مرة أخرى!

واستيقظ الإمام "مُلاَّ محمد" صَبَاحَهُ على سكينة السلام.. ثم دخل الناسُ جميعا ما بقي من غرف مساكنهم آمنين!

ولم يزل الجد شامل يقص هذه الحادثة العجيبة مرارًا، ويقول معلقاً: "مُلاَّ محمد أفندي من رجال الله، الذين يتلقون الإشارات الصادقة عن عالم الروح، ويعكسون أنوارَها بمرايا قلوبهم الصافية! لا أعرف في هذا الزمان منهم أحدا سواه!"

ولذلك لم يكن "شامل آغا" يُسَلِّمُ لمن يحدثه عن حقائق الروح والكشوفات، إلا بعد التحقق من حاله ومقامه، والاستيقان من صدقه في دينه وصلاحه! ولعل المحن والتجارب المريرة التي عاشها الرجل جعلته حاد النقد، شديد الرفض لكل زيف! كما أن التهجيرات المتتالية التي تعرضت لها أسرته بسبب الحروب العالمية والإقليمية، وهجوم الروس والأرمن على مدائن أرضروم، وما كانوا يُلحقونه بالبلاد والعباد من تخريب وتدمير، كل ذلك جعل منه شخصية شبه عسكرية!

مواجع التهجير

عندما تجتمع ريح الاغتراب الروحي، مع ريح الاغتراب المكاني، تتحول الأشجان إلى عاصفة تضرب مواجيد القلب ببوارق من نور ونار وتورث النسل الجديد شوق السفر الأبدي، وحنين الهجرة نحو المجهول! فلا ترتبط بشيء من معالم التراب إلا قليلاً، لكنها تحتفظ أبداً بقنديل صغير في كل مَهَاجِرَهَا، كلما وصل بها السير إلى شاطئ الغروب، أوقدت فتيلَه

من جمر الحزن، فعبَرت به ظلمات المحيط، ضرباً نحو شروق جديد!

.....

كان الجد "شامل آغا" متربعا وسط مجلس الأسرة ليلاً، يشرف برأسه العظيم من تحت عمامته الكبرى على أبنائه وحفدته، ويحكي.. كان يرسم لهم شريطاً متحركاً بصور الشجا والشجن، ويعرض قصص التشريد والتهجير، الذي تعرضت له أسرته في تاريخها المرير.. منذ عهد النفي من مدينة أخلاط شرقي البلاد، زمن الجد الأول "خليل".. حتى الهجرة من قرية كُرُوجُكْ زمن الجد "مُلاَّ أحمد"، وما كان من حرب الروس، وشد الرحال إلى محافظة "سِيوَاس"، والإقامة بها زمناً.

كان الجد "شامل آغا" يومها طفلاً يافعاً، قد بدأ يستشرف مرحلة الشباب. ولذلك لم ينس ما صاروا إليه في تلك الهجرة من الفقر والبؤس الشديد! ولم ينس مَشَاهِدَ "كُرُوجُكْ" الحزينة بعد الحرب، وكيف خربها الروس حتى لم يَعُدْ فيها حَجَرٌ قائما على حجر!.. هناك تُوفي الجد الأعلى "مُلاَّ أحمد"، والد "شامل"، بعد نحو ثمانية أعوام من العودة إلى "كُرُوجُكْ". ثم بدأ الأبناء يجتهدون لاستعادة ثروتهم؛ فأفاض الله عليهم من فضله خيراً كثيراً، واشتروا أملاكاً أخرى. ولكن ما كادت تستقر أحوالهم على مراتب الغنى من جديد؛ حتى حلت الحرب العالمية الأولى، وبدأت هجرة الأهالي من محافظة أرضروم مرة أخرى! فأصبحت قرية "كُرُوجُكْ" بعدها خاوية على عروشها!

أما الجد "شامل آغا" -وقد كان هو أب الأسرة آنئذ- فقد حمل ما أمكن حمله من طعام ومتاع، وجهز رحلته على خمس عربات صغيرة أو ستٍ، من العربات التي تجرها الأبقار. ثم هاجر بجميع أسرته إلى قرية من

قرى "يَرْكُويْ" التابعة لمحافظة "يُوزْغَاط"، واستقر هناك لعدة أعوام. حتى إذا وضعت الحرب أوزارها، عاد بأسرته مرة أخرى إلى "كُرُوجُكْ". لكنهم عادوا هذه المرة بلا زاد ولا ماشية ولا متاع! فقد استهلكوا في الغربة كلَّ ما امتلكوه ولم يبق لهم أثناء العودة سوى حمارين اثنين ركبت جدة فتح الله أحدَهما، واحتضنت في حجرها أصغر الأبناء، وحملوا كل ما بقي لهم من متاع قليل على الحمار الآخر، وسار الباقون من أفراد الأسرة راجلين، سواء منهم النساء والولدان، يتقدمهم أبوهم "شامل آغا"، فرجعوا يقطعون تلك المسافة الطويلة سيراً على الأقدام!

كانت قريتهم الصغيرة "كُرُوجُكْ" قد هُدِّمت مرة أخرى عن آخرها! فلا أثر لا للمنازل ولا للحدائق ولا حتى للاصطبلات، بل لا أثر لشيء يدل على الحياة! وهنالك قضَوا أياما صعبة جدًّا، بلا طعام ولا شراب، يصارعون البؤس الشديد والفقر المدقع! ولكن الجد "شاملا" ما فتر عزمه وما تزلزل أمله، بل وقف بقوة وصَفَّ أبناءه صفا واحداً، لخوض معركة الحياة ضد الفقر والجوع! فانطلق هو وجميع أفراد أسرته يخوضون غبار الكد، ومشاق العمل هنا وهناك لبناء الثروة من جديد حتى أغناهم الله من فضله مرة أخرى.

ذلك هو "شامل آغا" رجل الشدائد وإدارة الأزمات!..

عندما كان يتحدث، كان حفيده فتح الله يغرق بروحه في روحه، ويرحل فيها نحو الزمن الماضي، حتى ينزل بكيانه في قلب المشاهدات! فإذا به هناك، يكابد مواجع التشريد مع أسرته في رحلة المعاناة، ويتجرع محن زمن لم يكن قد وُلِدَ فيه بعد! وإنه ليشعر بسياط البرد تمزق جسمه الصغير.. وهو يسير على قدميه في هجرة لم يشهدها! ويجد ألم الجوع

ومشقة السير، ومرارة التهجير والتفقير، وأهوال الحرائق والحروب!

يجد ذلك كله، ثم ينظر إلى جده بإعجاب كبير! ويتفهم جيّداً لماذا صار رجلاً مهيباً. فكل تلك التجارب المريرة قد جعلت "شامل آغا" يتصرف بمسلك جادٍ أبداً، سواء في علاقته مع أسرته، أو في تعامله مع الناس! فلا أحد يعرف لضحكه صورةً ولا شكلاً! ولا أحد يستطيع أن يزعم أيضا أنه رآه يبكي! إلا مرة واحدة! كانت حالا نادرة في علاقته مع حفيده "فتح الله"، حالا كانت في الحقيقة سِرّاً من الأسرار، جعلت الفتى يكتشف في جده عالَماً أرحب لم يكتشفه سواه! ولذلك ارتقت المحبةُ بينهما إلى مراتب الخلة والتوحد الروحي!

كان الجد عميق المحبة لجميع أبنائه وحفدته، لكنه لم يكن يُعلن ذلك لأحد منهم، ولا لفتح الله..! بل كان يضربهم أحياناً، ويزجرهم زجراً، بل لا يزال الحفيد يتذكر أن الجد ضرب أباه "رامزاً" مرة أمام ناظريه! كان "شامل" يبدو رجلا صلبا، إلى ما يشبه القساوة أو يقاربها..! هكذا كان يبدو.. ولذلك كانت أَدنى التفاتة طيبة نحو أي أحد منهم، تعتبر أكبر رحمة بالنسبة إليه، ولم تكن تُنسى! ولكن على الرغم من كل هذا، فقد كان يستبطن علاقة من المودة مختلفة نحو حفيده الأثير "فتح الله".. كانت مودة مكتومة، لم تكد تخرج من أعماق الوجدان، ولم يكن من السهل أن يفهمها أحد، ولا أن يدركها سوى المعني بها نفسه: الحفيد فتح الله! كانت نظرات "شامل آغا" نحوه عبارة عن رسائل وجدانية عميقة، ولم تكن تفيض نحو السطح إلا خلال مواقف خاصة ونادرة لم تحدث إلا مرتين أو ثلاثا، لكنها كانت معبرة عن عمق العاطفة التي كانت تتدفق في أغوار قلب الجد بما يخالف مظهر القساوة المعروف به. وقد تلقى فتح الله تلك

الرسالات كلها؛ فكانت -رغم ندرتها- كافية لتجعله يكتشف حقيقة جده، وليدخل من خلالها في وحدة وجدانية كاملة معه! وأَلِفَ الحفيدُ جده إِلْفاً غير عادي، حتى إنه لم يعد يطيق الحياة بغير وجوده، وسماع حديثه!

جَبَلٌ يتفجر أنهارًا..!

"أَلْوَارْلِي" قرية صغيرة من قرى أرضروم، لا تبعد عن "كُرُوجُكْ" إلا ببضع كيلومترات.. كانت بدون إمام للصلاة، فترجَّى أهلُها والدَ فتح الله السيد "رامز أفندي" بسد هذه الخلة. فكانت فرصة للوالد الشاب أن يخوض تجربة جديدة لم يتردد في قبولها، فقرر الرحيل إلى "أَلْوَارْلِي"، ثم استأذن والدَه "شامل آغا" فأخذ أسرته الصغيرة ورحل إلى مقر إقامته الجديدة. فبقي الجد مع أبنائه وأحفاده الآخرين، بمنزل الأسرة الكبير في كُرُوجُكْ.

كان لشامل آغا سبعة أولاد، منهم أنثى واحدة هي العمة "دُرْدَانَه"، وستة ذكور، هم: رَامِزْ أبو محمد فتح الله، والعم راسم، والعم نور الدين، والعم أنور، والعم صَفَر، والعم سيف الله.. كانوا جميعهم آية في الألفة والمحبة، فقد صنعوا رَحِماً لم تزل ترتبط بوشائج من الاحترام والتوقير العظيم، والتفاني في خدمة بعضهم بعضاً، والتعاطف بنوادرَ من أخلاق الإخلاص والإيثار؛ ما جعلها تستحق أن تكون أسطورة تدور على الألسن في "كُرُوجُكْ"!

أسبوع واحد فقط مَرَّ على رحيل الأسرة الصغيرة إلى " أَلْوَارْلِي "..

لكن زمانه الحسي دخل في زمان الوجدان المعنوي؛ فصار في شعور الطفل فتح الله كعام كامل! لم يكن قد جاوز التاسعة من عمره، لكن وعيه بما حوله كان على وِزَانِ وعي الرجال! وإنه ليذكر كيف كانت فرحته عظيمة عندما أمره والدُه بالذهاب إلى كُرُوجُكْ لجلب بعض أغصان

الصفصاف، من حديقة بيت الأسرة الكبير كي يغرسها ذكرى أمام البيت الصغير في أَلْوَارْلِي.

كان الطفل قد بلغ به الشوق إلى كُرُوجُكْ حد الجنون! فلم يكد الوالد ينتهي من كلماته، حتى انطلق "فتح الله" يركض في اتجاه قريته الحبيبة! كان يشعر وكأنه يطير؛ بما يجد من خفة ساقيه ونشاط خطوه السريع! ولم يكد يصل مقام المحبة حتى انكشف الحجاب عن الأسرار..!

.....

ودخل فتح الله الحديقةَ على حين غفلة من أهلها..! وانْدَسَّ ببدنه الصغير بين الأشجار! فانقطع تيار الزمن! فللذة اللقاء امتدادُ "آهِ" المحبة في قلوب العاشقين! وتفتحت عيناه ترشفان من رحيق الأزهار والورود، متنقلا بين خميلة وأخرى.. ومر زمان من عمر الروح لا يدري له أمداً.. لكنه لم يكن في زمان الأرض سوى لحظات! فإذا به يبصر جده "شاملاً" وهو واقف بين يديه في الحديقة كالجبل العظيم! والتقت عيناهما في خلوة الروح.. فكان الذي كان!

خَطا الجد نحو الحفيد خطوات.. وإن الناظر إليه لا يدري بأي التجليات كان يتحرك؟ أَبِأَحْوَالِ الجمال أم بأحوال الجلال؟ فليس من السهل أن تعرف ما يسبح في بحره العميق من حيتان أو مرجان! ولا يبوح البحر بأسراره حتى تتدفق أمواجه على الشطآن! ثم اقترب حتى كان قاب قوسين أو أدنى! ولم تزل العينان من الجهتين تتواصلان بأشعة الرهبة والرغبة! حتى إذا ضاق الجبل بمائه الفوار تفجرت الحجارة بالأنهار! ثم تدفقت التجليات تترى فجعلت حصونَ الجد دَكّاً؛ وخر على جسد حفيده صَعِقاً!

ثم.. ثم احتضن الغلامَ بكلتا يديه وأجهش بالبكاء..! وانجرفت

الحجارة بقوة السيل شهيقا عميقا، ترتجف له من حوله فرائصُ الأشجار والأطيار! ولبكاء الشيوخ رهبة ولا كأي رهبة! بكاء يجرف معه كل أحزان التاريخ، ويُهيج كل مآتم العمر، وكل مآسي الأيام الخوالي! فمن يستطيع سد السيل إذا هاجت وديانه من كل شعابها..!؟

وتُطلق الرياح شهيقها الرهيب بين شماريخ الجبال! لكن الطفل بقي بين يدي جده حائراً! وتساءل خاطرُه الجريح متعجبا: "جدي شامل هو أيضا يبكي؟".. كانت المفاجأة بالنسبة إليه أشبه ما تكون بصعقة الروح، أو بكشف نوراني مباغت! فلا يدري القلب في غمرة النور كيف يتصرف! لكن الحيرة لم تطل كثيراً فما كان لقلب الصغير أن تحجم عصافيرُه عن رد صدى النشيج! ولم يدر كيف دس وجهه في صدر جده، وانخرط يغرف من مواجع النحيب! ثم اتحدت دماء التاريخ بدموع الزمان الجديد! فاخرسي يا حمائم الرثاء وأنصتي! فهذا الشيخ الحكيم ينقش الآن رثاءه لنفسه شعراً يتضور ألَماً ثم يلقيه على عصره الراحل من التاريخ الحزين إلى زمن الحفيد، محملا بآلاف المواجع والجراح! ولم يزل شهيقه الكليم يتفجر من أرضروم، ويسرب مع الريح حتى تتكسر أصداؤه الولهى على مآذن إسطنبول، هنالك في الغرب الشمالي للبلاد!

وجعل الجد شامل يردد كلمات من الشعر التركي الحزين، شعر رسخت أبياته في ذاكرة "فتح الله" ألماً لذيذاً لم ينسه قط:

"قد غادرت الوردةُ المكان..

ورحل العندليب!

فكيف يطربنا ضحك؟..

وما يجدينا النحيب؟"

المحضن الثاني: جدة عارفة بالله!

عندما تكون المرأة معلِّمة تخجل كل علوم البيداغوجيا، وتلملم قواعدَها المتكسرة، ثم ترحل من عالم التربية والتعليم، لتختفي لَقًى في سلة المهملات! فيكفي أن تنحني الأم على الطفل لتنطلق العصافير بالتغريد والتفريد، وتتفتح الأغصان الغضة بأزهارها الجميلة، ويبتهج الربيع!

الأم، أو الجدة، أو العمة، أو الخالة، أو الأخت الكبرى.. هي أميرةٌ تتربع على قلوب الأطفال! أو هي عش من الريش اللطيف يهدهد أحلام البلابل الجميلة..! فلتكن حاضرة ههنا وكفى!.. سواء تكلمت أو صمتت! فإن مواجيدها تشتعل في فضاء المكان قناديلَ وسُرُجاً، ومصابيحَ تتوهج بنور لا نار فيه! فتحتف بها الفراشات الجميلة في احتفالات الليالي المباركة! ثم تتلقى القلوبُ الغضة من دروس المحبة بَصَمَاتِ أخلاق، وأصولَ قيم! دروسٌ فطرية تحقق أهدافها كاملة بطبيعتها التلقائية، على نجاح كامل بين المعلمة والتلميذ، بصورة لا تعرف مقولاتُ البيداغوجيا لها سَبَباً فَتَتَّبعَ سبباً!

"مؤنسة هانم" جدة "فتح الله" لم تكن امرأة عادية.. كانت ذات مقامات وأحوال! لم تزل في رحلة العمر -عبر مواجع التهجير والتنفير مع زوجها شامل آغا- تشرب كؤوس الصبر والاحتساب من موارد المهاجرين؛ حتى ارتقت إلى مقام الصمت الناطق بمعرفة الله! فصار مجردُ وجودها في المكان سببا لنزول السكينة وغشيان الرحمة!

كثيرة البكاء تعبداً، كثيرة الصمت تفكراً! امرأة عظيمة القدر، ذات أوقات وأحوال! محترمة لدى العلماء ومشايخ العصر الكبار! فقد كانت شخصيتها الربانية أول من فتح الطريق لفتح الله، في مسلك التعرف إلى

الله! فشرب من حوضها الساكن الجميل ما لم يشربه من حياض سواها، من غبطة الروح، ومتعة الخوف والرجاء! ومنها تعلم معنى الارتباط بالله.. وفي صمتها العميق شاهد تجليات النور على خُلَّصِ السالكين إلى الله!

ما عبست في وجه حفيدها قط، ولا قرصته يوما بكلمة، بل كانت هينة لينة، ذات بسمة تشرق بالنور على محيَّاها.. كلماتها اللطيفة توزع ورود الرحمة والجمال، وترش الندى والأريج على كل من أتاها!

وما رآها الحفيد تنتفض وتخرج من بحر سكينتها إلا مرة واحدة؛ كان ذلك ذات يوم عبوس، إذْ غضب أبوه "رامز أفندي" على زوجته "رفيعة هانم"، فانطلق نحوها بما يشبه الهجوم؛ فإذا بالجدة الوقور تثب من مكانها بقوة! وتصرخ في وجهه بكلمات رهيبة: "إياك يا رَامِزْ! كُفَّ وإلاَّ حَرَّمْتُ عليك حليبي، وسحبت منك كلَّ حقوقي!" وتراجع الأسد منكسرا إلى خلف بخطى وئيدة، يثقلها الخوف، ويجللها ندم الاعتذار!

وانطلق المطر يهطل على الحرائق المشتعلة بغزارة؛ حتى اغتسلت من أدرانها أغصانُ السلام!

المحضن الثالث: أُبُوَّةٌ تَتَفَجَّرُ كَوْثَراً!

رامز أفندي كان رجل زمانه، وصاحب مكانه!.. الشعور بالزمن مقامٌ ليس كل الناس يدركه.. فالتبلد الوجداني والجفاف الروحي يحرم القلب مشاهدة حركة الزمن السارية في الأشياء، وعقاربِه الهاربة من المشارق إلى المغارب صباحَ مساء! كانت الهجرات العديدة التي طوحت بأسرة "رامز" منذ طفولته الأولى، قد جعلته يتأخر في طلب العلم ثلاثين سنة! ولكنه تعلم -خلال ذلك- أهم درس في الحياة: الإحساس العميق بالزمن!

ولذلك فما أن استقرت الأوضاع حتى سارع الرجل -وهو أب أسرة آنئذ- إلى مكابدة حفظ القرآن، والتفرغ لطلب العلم، جنبا إلى جنب مع ابنه فتح الله! ولا وجد في ذلك أي غضاضة! ولقد فَتَحَ اللهُ له في ذلك فتحا مبينا حتى إنه اختزل عشرات المراحل، وقطع مئات الأشواط في وقت قياسي عجيب! فصار يُنسب -بعد بضع سنوات- إلى أهل العلم والعلماء في بلده!

لقد كان "رامز" ذا ذاكرة حادة، واستيعاب عقلي كبير.. وكان صاحب مواجيد ملتهبة، وروحانية عالية، وصلة دائمة بالله. وكانت له مواعيد في صلواته مع أوقات الوصل العالي، فإذا دخلها كان هناك! كانت عينه رطبة بالدموع على الدوام.. لم يعرف الوقتَ الميتَ قط، ولا عاش في حياته فراغاً! عندما كان يعود من المزرعة إلى البيت، كان يبدأ بقراءة فصل أو فصول من كتاب، قبل أن يخلع حذاءه! فيستغرقه الكتابُ إلى أن يُجهَّز له الطعام. كانت المطالعة بالنسبة له وظيفة يومية، ومتعة عقلية، ولذة روحية عالية، وراحة من عناء الحقل.

وما بين المزرعة والبيت مدرسة أيضا، فقد كان يعمر وقت الطريق ذهابا وإيابا، بمراجعة المحفوظات الحديثة واستذكارها. فلم يكن فمه يفتر، إما من تكرار محفوظه الأخير من القرآن، وإما من ترديد الأبيات الشعرية العربية أو الفارسية،[1] مما تعلمه من هذا الفن أو ذاك، حتى إن ابنه فتح الله قد تلقى منه الكثير من المعلومات حفظا عبر السماع لهذا التكرار والاستظهار! فقد تلقى عنه بهذه الطريقة قصيدة البردة للبوصيري كاملة، وكثيراً من الشعر العربي والفارسي! كما حفظ من مواعظه التي كان يلقيها بالمسجد الشيء الكثير من هذا وذاك!

(١) كانت اللغة الفارسية في العهد العثماني هي لغة الشعر والأدب، بينما كانت العربية هي لغة الدين وعلوم الشريعة. أما التركية فقد كانت لغة الإدارة والمجتمع العام.

ولم يزل الفتى فتح الله يذكر الشيخ "خليل هُوجَا" الذي قَدِمَ عليهم في قرية "كُرُوجُكْ"، ونزل ببيتهم أياماً غير قليلة. كان عالما عظيما، محترما لدى العامة والخاصة. فلزمه السيد رامز ولم يفارق مجلسه قط. وكان يتلقى منه العلم والقرآن وهو جالس عند ركبتيه.

عندما غادر الشيخ خليل أفندي "كُرُوجُكْ" نحو قرية "مَصْلَحَة"، تبِعه السيد رامز ورحل معه بمفرده. فغاب عن أسرته لطلب العلم عامين كاملين! ولم يكن فتح الله آنئذ قد جاوز الخامسة من عمره. فكان خلالها يشعر بما يشبه اليتم، خاصة في أيام الشتاء القارسة الشديدة! أما الوالد فقد درس خلال غيبته اللغتين العربية والفارسية، واستزاد من علمه كثيراً. حتى إذا عاد إلى قريته تفرغ لدراسة علم التجويد والقراءات، على يد الشيخ "سليمان أفندي".

ولم يزل السيد "رامز" دائم السياحة في عالم العلم والمعرفة، طالبا للحكمة، متدثراً أبداً برداء الهيبة والوقار.. عندما تفتح وعي الفتى فتح الله على شخص أبيه، أدركه في الخامسة والثلاثين من عمره تقريباً. فعرفه بعمامته المنتصبه على هامته بجلال. ما رآه بدون عمامة قط، تماما كجده "شامل آغا"، لكنه مع ذلك كان صاحب لطائف وطرائف، بيد أن طرائفه كانت ثمرة ذكائه العجيب وبداهته السريعة. فقد اكتسب -خلال هجراته القسرية والعلمية- حكمة بالغة في الكلام، فلم يكن ينطق بشيء إلا على ميزان، حتى إن المشايخ كانوا يعجبون -وهم يحاورونه- من دقة عباراته، وجمال أدبه الرفيع، وخلقه العالي الكريم!

كان "رامز" صاحب عزيمة قوية، ومجاهدات شديدة. فقد عاش مراحل الانقلابات الرهيبة من دولة الخلافة العثمانية إلى تركيا العلمانية الحديثة!

وعاش المحن بشتى أصنافها.. ومع ذلك كان منه ما كان! ففي هذه الفترة أُعْدِمَت الحروف العربية، وأبيدت اللغة العثمانية الأصيلة! وصار استعمال الحرف العربي أو تحفيظ القرآن أخطر على صاحبه -معلما ومتعلما- من تهريب المخدرات! وبعزمه الشخصي تعلم "رامز" القراءة والكتابة فرداً! والحال أن كثيراً من الشعب التركي آنئذ، كان هائما على وجهه في حروب التتبير والتهجير! حتى إذا أتقن "رامز" فن القراءة واكتشف مسالكها، اندس في حِلَقِ المشايخ والعلماء، يكرع من معين العلوم والمعارف. وقد جعل لمشايخه في منزله مُتَّكَئاً. حيث كانوا هم أغلب ضيوفه، ولم يكن البيت يخلو منهم إلا قليلا.

في بيوت شرق الأناضول، حيث سباع البرد الشديد، تُقَرِّسُ بمخالبها عروقَ الماء والدماء، عادةً ما يوجد بمحاذاة كل بيت منها اصطبل للخيل، وحجرة خاصة للضيوف تلتف مع الاصطبل حول البيت التفافاً. وقد كان ذلك النظام الهندسي العجيب، مفيداً في بث دفء الاصطبل في معمار البيت كله! وخاصة حجرة الضيوف!

وفي أيام الشتاء الطويلة، التي كانت تمتد في مناطق أرضروم نحو تسعة أشهر كاملة! كانت توقد مدفئة فحم أو حطب، في صالة الجلوس باستمرار. وكانت أباريق القهوة مع فناجينها جاهزة عند النار على الدوام. فالضيوف الوافدون، إن كانوا مضطرين إلى المغادرة سريعاً، قُدِّمَ لهم كأس قهوة ساخن وانصرفوا شاكرين.

كذلك كان بيت رامز أفندي أبداً، بيتٌ يذيب برودة الطقس القاسي بحرارة الكرم، ودفء الاحتضان لجميع ضيوفه، وخاصة منهم المشايخ والعلماء. وما كان أحب إليهم من الاجتماع بهذا البيت الطيب الأعراق؛

مما كان له الأثر الكبير على شخصية الفتى فتح الله، حيث كان يندس مع أبيه بين العلماء، متلقيًا في سن مبكرة جدّاً لدقائق من العلم، وكثير من المعارف التي هي فوق طاقة أترابه بكثير!.. وإلى جانب العلماء كان أئمة المساجد أيضا، يُكرَمون بهذا البيت العامر، حتى إن كثيراً من منازلهم قد بنيت على أراضي "آل كُولن"، وصارت من مقتطعاتهم!

خلال السنوات العجاف التي ضُرِبَ فيها المنع والحصار على تعليم القرآن، حفر السيد رامز أفندي في إصطبله نَفَقاً سريا، يسلك من تحت الأرض حتى ينفتح على بيت إمام المسجد في الجوار القريب! وخلال هذا النَّفَق السري كان يتم عبور رامز وأبنائه، إلى غرفة الإمام يتعلمون القرآن! حتى إذا انتهت الحصة، ورجعوا إلى بيتهم عبر النفق كما جاؤوا؛ سد رامز مدخله بالقش وروث البهائم!

مشهد الوالد رامز هذا كان له أثر بالغ على ولده فتح الله. فما لقيه من معاناة في طلب العلم وهو في ذلك العمر، جعل الابن ينضج عقله في وقت مبكر شديد التبكير؛ إلى درجة أنه ما جالس أقرانَه لاهيا قط، سواء في طفولته أو شبابه! ولم يعرف للعب الأطفال ولا لنزق الشباب معنى! لقد عاش مع الكبار أبداً!.. حتى تطبَّع بأخلاق الرجولة وسجايا الفحولة، وهو طفل يافع صغير..!

ولا ريب في أن الدور الكبير لاكتساب تلك السجية كان للوالد رامز، الذي اصطحب معه ابنه في مسيرة طلب العلم المريرة، وأشركه في مجالسه التي ما كان الفتى يشبع من موائدها قط، وخاصة منها مجالس "الإمام الأَلْوَارْلي". ورغم أنه لم يكن يفهم كل ما يقوله الشيخ، إلا أنه كان يحفظ كل ما يتلفظ به! فبعد كل مجلس كان يعود إلى أمه وجدته

وزوجات أعمامه، ثم يقص عليهم ما قاله الإمام الأَلْوَازْلي كلمةً كلمةً! وكان يجد لذلك لذة لا توصف، ومتعة لا تنتهي!

وعن أبيه تلقى حُبَّ الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين. كانت الأسرة سنية أصيلة. وكان رامز أفندي في هذا الأمر على مقام من الوعي والحب رفيعٍ جدّاً. كما كان له إجلال كبير لفقهاء الأمصار والأئمة الكبار. أما الصحابة الكرام فقد كان لحبه إياهم تجليات تستبد به أحوالُها إلى درجة الجنون! كان كثير المطالعة لسيرهم وتراجمهم، يقرؤها ويعيدها كأنها أوراد لا يمل من تكرارها حتى إن كتب التراجم الموجودة في مكتبته قد بليت وتآكلت من كثرة المطالعة وتقليب الصفحات! عندما كان يتحدث عن أحدهم في مجلس الأسرة، كان كأنه يغيب عن عالم الشهادة! كان يحلق بروحه بعيداً، ويرتقي بوجدانه عاليا.. كانت أعينه ترتفع إلى أعلى كأنها تتبع روحَها، أو كأنها تشاهد عالماً آخر! فكان يلقي إلى أبنائه بما قطفه من تلك العوالم العليا من مشاهدات! فيتغذون جميعُهم من رحيق الحب الصافي لأصحاب رسول الله -عليه الصلاة والسلام- ثمارَ الهدى والكرَم! حتى صار حضور الصحابة في قلوب الأطفال، وكأنه حقيقة مُعَاشَةٌ حية! وصار تداول أسمائهم فيما بينهم، وكأنهم بعض أفراد الأسرة!

وعلى درب طلب العلم نشأت صداقة خاصة بين الفتى ووالده، صداقةٌ لم يَسْرِ تيارها المخصوص إلى شرايين أبنائه الآخرين، رغم أنه غمرهم بشلالات الحب والعطف، ما جعل أرواحهم في مقام البنوة المؤمنة الصالحة. لكنَّ لفتح الله سرّاً من المحبة عند أبيه مكنوناً! فقد كان أحرص عليه من غيره لما وجد فيه من إقبال عجيب على حفظ القرآن وطلب العلم. فكان يعامله بما يشبه معاملة السادة والأشياخ، حتى إنه إذا

جالسه في غرفة ولم يكن معهما أحد، جعل تحته وسادة دافئة، تقيه قر البرد وترفعه وتعليه، تماماً كما يجعلها لأشياخه من أهل العلم! فإن كان المجلس جامعا لأفراد الأسرة دسها تحته خفية!

لقد كانت علاقة الوالد مع ابنه فتح الله علاقة زمالة في طلب العلم. وبما كان يرى فيه ما يرى من مخايل العبقرية كان يعقد عليه الآمال الكبيرة في هذا الشأن، وينظر إليه باستبصار مستقبلي عجيب؛ ومن ثم كان يحرص على تنمية هذه المواهب في ابنه بشتى الوسائل. ففي الوقت الذي كان يجلس فيه فتح الله لحفظ مقرره اليومي من القرآن، كان الوالد يجلس إلى جانبه ليحفظ درسه من ذلك اليوم! تشجيعا له وتشويقا. ولذلك فقد كان الفتى يكتسب منه طاقةً وحيويةً لا تُوصف، وكان يجد لذة في مسابقة أبيه، محاولا أن يحفظ مقرره قبله بإحساس يجمع بين متعة الدعابة ونشوة السباق!

ورغم ذلك كله فلا يذكر الفتى أن أباه خرج عن مقام وقاره وجلاله، ولا هتك ستر الأدب معه، ولا مع إخوته قط! فهو أبداً بين حالين: إما في تصريف عواطف المحبة والجمال، وإما في تصريف مشاعر الغضب والجلال!

تأديب نفسي

وليس ينسى فتح الله أبداً ذلك الدرس الرهيب، الذي تلقاه يوما من مقام أبوته العالي، سياطَ تقريع صامت من التجليات اللاذعة، لو أبدلها له بمائة جلدة لكانت أهون عليه! كان في حوالي الخامسة عشرة من عمره.. حيث التقط آفة التدخين لأيام قليلة تقليداً لبعض الرجال الكبار في القرية على عادة الأطفال في تقليد ما يعتقدونه مظهراً من مظاهر الرجولة والفحولة! واتخذ لذلك غليونا على طريقة بعض المترفين! فاستمر على ذلك لمدة

شهر، فإذا بالوالد يكتشف الخلل الطارئ على مسلك الفتى النجيب! فما انتهره ولا زجره، ولا حتى فاتحه بشيء في الموضوع، ولكن جعل له مسلكا آخر من العقاب المعنوي، هز كيان الفتى هَزّاً..! ففي مجلس من مجالسهما الخاصة، والابن جالس بين يدي والده، إذا بالأب يضع رجلا على أخرى، بنوع من التظاهر بالعجرفة والكبرياء، على غير عادته، ثم أخرج من جيبه علبة السجائر نفسها التي كان الفتى قد أخفاها تحت وسادته، وأشعل سجارة بقداحة الفتى عينها، وكأنه يهم بتدخينها، وما هو من المدخنين!.. وسُقِطَ في يد الابن الْحَيِيّ! كان العرق قد فاض على كل ثيابه بحمّى لاهبة من الخجل الشديد! وشق مشاعره بحرج أليم من الندم، لم يجد له مثيلاً في حياته قط حتى إنه ود لو ابتلعته الأرض، وما كان ليرى نفسه بين يدي والده في ذلك المشهد الرهيب! ورأى رأيَ العين، فيما مَثَّلَهُ له أبوه ساعتَها من هيأة استكبارية، كيف أن تلك الحال الدنيئة لا تليق بجلال الرجل العالِم وجماله! فكان ذلك الدرس العملي البليغ، كفيلا بجعل الفتى يتخذ قرار مقاطعة التدخين إلى الأبد!

المحضن الرابع: أمٌّ تَسْتَدِرُّ بَوَارِقَ القرآنِ بِلَيْلٍ!

وللقرآن في زمن الغربة نورٌ لاهب! من يقبضْ على آياته يُحَرِّقِ الجمرُ مواجيدَه! ومن ذا قدير على المغامرة بالسير ضد تيار العواصف الهوج!؟

أمُّ فتح الله، السيدة "رفيعة هانم" معلمة القرآن لنساء القرية أجمعين، آلت على نفسها أن تلقي بنفسها في أخدود المحبين!

تلقت شغفها بالقرآن عن والدها الشيخ أحمد الزاهد.. كان يختم كتاب الله كل ثلاثة أيام، فإن تأخر فكل أسبوع! قَوَّامٌ صوَّام، عاش بعيدا

عن المدائن وزخارفها، فلم يكن ينزل بها إلا لضرورة؛ لِمَا كان يراه من فساد الزمان وأهله! يعيش مع الله على كل حال. هكذا بقيت صورته الربانية شاخصة في ذاكرة ابنته أم فتح الله، فكانت بذلك آية في الجهاد بالقرآن، خاصةً عندما صارت الدولةُ العلمانية الحديثةُ تُشَرِّدُ قُرَّاءَ كتابِ الله وتُقَتِّلُهُمْ تقتيلاً!

كان منتصف الليل موعد العصفور الطريد.. لم تكن ثمة فسحة للتغريد بالنهار.. وأنى له ذلك وهذه بنادق القناصة قد شرعت فوهاتها الرهيبة تجاه كل الأشجار الخضراء.. تنتظر سماع ترتيلة واحدة لإخراس صوت الحياة الجميل غدراً، بألف طلقة وطلقة!

كان فتح الله في السنة الرابعة من عمره، عندما بدأ يجلس تلميذاً في جوف الليل، يردد آيات الشجا على مواقد الدموع المتوهجة بمآقي والدته! كانت الثلوج تضرب حصار القَرِّ على الأبواب والمنافذ، وترسل زمهرير الغضب عاصفا يجوس خلال الديار، ويعصف بالأحجار والأشجار! كل الأجسام الآن تتلبد في أغطيتها خوفا من عض أنيابه الضارية، إلا هذين الطيفين المتحلقين على موقد الشجا: الطفل وأمه! فقد كانت حرارة الأشواق، ونار الأحزان المشتعلة في قلوبهما، أقوى من برد الشتاء وزمهريره! كانت أنفاسهما اللاهبة تنتشر في زوايا الغرفة الصغيرة، فتتصدى لألسنة البرد المتسرب عبر شقوق النوافذ والأبواب، فتردها على أدبارها، دموعاً متبخرة على نار الاغتراب!

وترتل الأمُّ زفيرَها عبر الآيات، ثم يردد الطفل الزفيرَ زفيراً، وتشتعل في سماء الليل الحزين أشواقُ المستضعفين، أملاً يحلق بأجنحة الجراح. وفي ظرف ثلاثين ليلة من زمن الأرض، موصولة بأزمنة أخرى من

بركات السماء، كان الطفل قد بلغ سدرة المنتهى من معارج القرآن، تلاوةً وترتيلاً! فأعلن أبوه وليمة القرآن، نداء لكل أهالي القرية احتفالا بطفله العجيب! ولم يزل فتح الله يذكر كيف أن أحدهم داعبه بقوله: هذه ليلة عرسك يا فتى! فأغرقه خجلٌ شديد! وهو الطفل الذي نشأ في بيت العفة والحياء، فلم يتمالك نفسه حتى أجهش بالبكاء..! كانت ليلة لم ينس جمالها وجلالها قط! ولم يزل بعد ذلك يتزود منها أشواق القرآن وأنواره، كلما ناداه داعي الإسفار عبر معارج الروح، ضربا نحو مقامات الملأ الأعلى! ولم تزل تنفتح عليه من ذلك أبوابٌ من كرامات الفَرَج، كلما ضاقت به مسالك الأرض الوعرة، خلال محن حياته اللاهبة. ولم تزل أمه واقفة خلفه بشخصيتها الربانية، تمده بإشارات الفتوح، وتنفحه ببشائر الروح، كلما اشتد الحصار على الديار!

كذلك الليل كان!

حتى إذا أدرك الأمَّ الصباح سكتت عن كشف الجراح! ثم استعدت لجهاد النهار، وانطلقت إلى الحقل لتساعد زوجها في أعمال المزرعة، وتحلب الماشية، ثم تعود إلى البيت، حيث تتفرغ لطبخ الطعام، لأسرة لا يقل طاعموها عن خمسة عشر شخصا إلى عشرين، حتى إذا آب النهار إلى الأصيل انطلقت إلى مخابئ نساء القرية المتخفين هنا وهناك، خلف حُجُبِ الأحزان -متحدية رقابة الحديد والنار- لتعليمهن القرآن! وإن المرء ليحار متعجبا: أي صبر كان للمرأة في ذلك الزمان العصيب، وأي جهاد!

وفي قرية "أَلْوَارْلي" صار عبء الأم المجاهدة أشد، وهي المرأة العليلة التي لا تكاد الأمراض والأوجاع تفارق جسمها الليل والنهار! وكيف لا؟ وقد كانت مسؤولة عن تربية ثمانية أطفال، من أحد عشر كوكباً ولدتهم

بطنا بعد بطن، توفي منهم ثلاثة وبقي ثمانية. ومما زاد حجم المعاناة أنها تركت بنتها الكبرى بقرية "كُرُوجُكْ" لتساعد جدتها إيثاراً لحماتها الصالحة! ومن ثَمَّ تَحَمَّلَ فتحُ الله ذلك الدور، فكان خير مساعد لأمه؛ لأنه أصبح هو الابن الأكبر الآن في البيت، وإن لم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره بعد. فصار يعجن الخبز ويطبخ الطعام، ويغسل الأواني والملابس، علاوة على اشتغاله اليومي بإتمام حفظ القرآن الكريم! كل ذلك وهو لا يدري أن القَدَر إنما يُعِدُّهُ بذلك التدريب لحياة خاصة، سيجد فيها نفسه وحيداً يحتاج إلى إتقان ذلك كله!

لقد صنعت السيدة "رفيعة هانم" -بمواقيت الليل الساجي وهموم النهار- من ابنها "فتح الله" رجلا صاحب أسرار..! وصنعت من جيلها وجيل بناتها، أمهات ربين فهوداً وأشبالا، كانوا هم طلائع الفتح المبين في معركة الزمان الجديد..!

المحضن الخامس: شيخٌ مُرَبٍّ، سِرُّهُ في ظله العالي!

هو "الإمام الأَلْوَارْلِيُّ"، عالم وإمام، وشيخٌ مُرَبٍّ، صاحب معارف ومشاهدات، وصاحب أذواق وأحوال.. كان مداره حول مقام القرب، فكوكبه السيار كان يجري بِفَلَكِ الحضور الدائم.. ومن هنا لم تكن مجالسه إلا نثاراً من فَيْءِ تلك العطايا! كانت أسرة "آل كولن" كلها متأثرة به أشد التأثر.. محبوبا لدى جميع أفرادها، بل مهاب الجانب موقراً أشد التوقير.. كان مجرد ذكر اسمه يبعث على ذكر الله، وعلى فتح أبواب القلوب مباشرة على معارج الروح! ولذلك فقد كانت الظروف كلها مهيأة لفتح الله، كي يتعلق بهذا الشيخ الجليل، ويتوجه بقلبه إلى حضنه العالي؛ فيتلقى عنه العلم والمعرفة، ويرتبط به تلمذةً وصحبةً إلى درجة التوحد الروحي.

فالكلمات التي كانت تتناثر من فم "الإمام الأَلْوَارْلِيّ" كان يتلقاها الفتى، وكأنها إلهامات جاءت للتو من عالم الغيب!

كان إذا تكلم عن حقائق العلم والمعرفة بهر القلوب بحديثه الشيق، وبيانه الندي. لم يكن كلامه عاديا كسائر المتحدثين، بل كان يتكلم كمن يصف ما يشاهد، لا كمن يستذكر ما استوعب! فيصبح الناس كلهم آذانا صاغية، تتلقى حقائق سماوية، وكأنها تواردت على الأرض توّاً، فتتجنح القلوب بأشجانها وأشواقها خوفا ورجاء، وتتطهر الأرواح بدموعها.. مما يجعل حلقة المجلس ترتفع بمواجيدها الحرى إلى أعلى شيئا فشيئا؛ حتى يشارك الجميع في مشاهدة النور، ويشربون من كوثر المعرفة بالله حقائقَ الإيمان، المغروفة من بحر اليقين.

كان الشيخ قطبا نادراً في زمانه، فقد كان ممن وُفِّقُوا إلى الجمع بين موزاين الشرع والتفكير الصحيح، وبين مواجيد القلب وأذواق الروح. ولذلك كان له سلطان عجيب على مريديه من الكبار والصغار على السواء.

عاش "الإمام الأَلْوَارْلي" بصدقه النادر حياة روحانية عملاقة، لم يسقط في شَرَكِ الفولكلورية الصوفية التي كانت سائدة في عصره، ولم يُبْتَلَ بمرض التظاهر والتعالم قط. بل عاش وكأنه طائر الحُمَى الأسطوري،[1] له ظلٌّ على الأرض ولكنَّ جسمَه لاَ يُبصره أحد!

ورغم أن صحبة الفتى لشيخه إنما كانت خلال طفولته الأولى حتى

(١) هو طائر أسطوري، يُستخدم مَثَلُهُ غالبا في منطقة "أرضروم" من بلاد الأناضول. ويُوصف بأن له جناحين أخضرين زمرديين، يُشَبَّهُ بالحمامة حينا، وبعصافير الجنة حينا آخر. ويُعتقد أنه يعيش في الذرى العالية من جبال الهمالايا. وهو لا يُبصر بسبب تحليقه في الأعالي البعيدة، وإنما يُعرف وجودُه بانعكاس ظله على الأرض فقط. ويُضرب ذلك مثلا للحقائق التي يجد الإنسان آثارها، لكنه لا يدرك ماهيتها أو لا يستطيع وصف سيمائها. كما قال قائلهم:

فكانَ مَا كانَ مما لستُ أَذْكُرُهُ فَظُنَّ خَيْراً ولاَ تَسْأَلْ عَنِ الْخَبَرِ!

حدود بداية شبابه -إذ مات الشيخ ولم يكن المريد قد جاوز السادسة عشرة من عمره- فإن عمق الصلة التي جمعت بينهما كانت ذات طبيعة أخرى.. وقد كان احتضان الشيخ لتلميذه أكثر من احتضان تربوي أو تعليمي، بل كان احتضانا عاطفيا فياضا، أشبه ما يكون بفيض الأمومة الجارف! ولم ينس فتح الله كيف هاج طبع صاحبه لما علم أن الأسرة سوف ترسله إلى شيخ آخر ليتعلم العربية، فانتفض الشيخ ثم أدخل تلميذه في حضن حضوره الروحي، وصاح مخاطبا إياه: "والله وبالله وتالله! لو ذهبتَ لتمزقتَ إِرْباً إِرْباً!" كان حاله كحال أُمٍّ أُرِيدَ نزعُ ولدها منها فَمَسَّكَتْ به تمسيكاً!

كلما كان الشيخ يمسح رأس مريده الصغير وهو يقول: تلميذي، تلميذي؛ كان الفتى يشعر بالمواهب الربانية تتوارد على قلبه الغض الصغير، فتزداد محبته وثقته بشيخه، وتسري في جسده مواجيد عجيبة من مشاعر الأمان والسلام، وكأنه مستند إلى ركن أمين.

ولذلك لم تزل مشاعر التلقي لتلك المواهب تملأ قلبه طيلة حياته، ولم يزل يجد لطافة يد شيخه وهي تدلك شحمة أذنه بلين ألطف من لين الديباج، ولم يزل يسمع صدى صوته العُلوي، وهو يقول له: "لَأُرَطِّبَنَّ أُذُنَكَ حتى تنفتح أبواب ذهنك جميعاً!"

كان الشيخ يُعْرَفُ بمهابة سيمائه الجليلة، التي تعكس شرف أصله، ونبل محتده، وأصالةَ جذوره المعنوية، وموارده الروحية. ولذلك لم يزل الفتى وهو في مجالس التلقي عند شيخه، ينظر إلى ملامح وجهه الوقور، ويحاول قراءة سيمائه الغريبة.. كان يتلمس بوجدانه الصغير نورَ جبينه، وإشراق خديه، ومعالم حاجبيه، ثم يغوص في بحار عينيه المكتنزتين

بالأسرار، محاولا الوصول إلى شيء، من خلال قراءة تلك السيماء الظاهرة الخفية. ولطالما تساءل في نفسه: "يا تُرى.. هذا الرجل الجِدّيُّ المهيب، بأي شيء من سيمائه يشبه جده الأعلى سيدنا محمد، شرَفَ نوع الإنسان؟" عليه أكمل الصلوات والسلام.

بهذا المستوى كان التلميذ معجبا بشيخه، حتى إنه كان شغوفا بالبحث عن معرفة "ما وراءه" من منابع الروح، محاولا التمسك بمسالكه، والتعرف عليه من خلالها. فجاذبية الشيخ الروحية، واستعدادات المريد النفسية، كانتا تلتقيان وتتعانقان، فتنتجان بقلب الفتى أحوالا، تجعله يعيش أوقاتاً ذات أذواق، ومشاهدات غنية بالألوان!

المحضن السادس: الشيخ "وهبي أفندي" رائد علم الصمت!

هو شقيق "الإمام الأَلْوَارْلِيّ"، كان أكبر منه سنا، لكنه كان ذا خصائص روحية من نوع آخر.. فقد كان صاحب أحوال ربانية فريدة، وأطوار إيمانية عجيبة.. فهو إنْ صمتَ كان ناطقاً في صمته، وإن تكلم كان ساكتاً في حديثه! كان رجلا مثل اليمّ في سعة صبره، ورحابة صدره، ذا قدرة عجيبة على استيعاب الناس على مختلف طبقاتهم، يعامل كُلاًّ بما يليق به. معتصما بحصن صمته العالي، لا يخرج عن مقامه ذاك إلا نادراً، فإن خرج فلإلقاء حكمة بالغة، أو لإرسال نكتة إشارية طريفة، ولا يكون ذلك منه إلا لحظات، ثم يغطس بعدها في بحيرة صمته العميق! كان الصمت هو الحال الحاكم عليه، والسلطان المتجلي في الغالب عليه. وبكثير من أطواره العجيبة تلك، كان يُمَوّجُ الحياةَ الروحية للناس من حوله. ولقد شرب الفتى من كؤوس صمته الطافحة بالأسرار، كثيراً من الحقائق

والمعاني، التي غذت مواهب التأمل بوجدانه، وأذكت جذوة التفكير في مسيرة حياته.

* * *

بهذا التلقي الشمولي الجامع أنتج فتح الله مواجيده الأولى وإحساساته، التي صنعت شخصيته الروحانية شابا وكهلا ثم شيخا. وبتلك القوة الروحية العظيمة، أسس طلائعَ الفتح تحت قباب مساجد مدينة "أَدِرْنَه"، ثم على حُصُرِ مدارس "إِزْمِير"، ومجالسها الليلية، ومخيماتها الصيفية. ثم رص صفوف خيولها بعدُ على صدى مآذن إسطنبول ورجع خلجانها.. ضربا إلى حدود مشارق الأنوار في بلاد الأناضول، من أرضروم إلى حوض بحيرة "وَانْ"، وتُخُوم جبل "أَرَارَات"! حتى إذا كبرت أشجار الدُّلْبِ في كل مكان، واستوت على سوقها؛ ناداها الفتى الفاتح بتلك الروح العميقة: ألاَ يَا خَيْلَ اللهِ ارْكَبِي..! فرددت الغاباتُ والشواطئ والخلجانُ: ألاَ يَا خَيْلَ اللهِ ارْكَبِي.. ارْكَبِي، ارْكَبِي..! صدى ملتهباً يضرب كالبرق نحو شماريخ الجبال، فترده نحو المدائن مطراً ربيعيّاً، يسقي عطش المآذن والقباب!

ثم ينطلق الصهيل يسابق أعراف الجياد، وهي تعدو مثل الرياح اللواقح، ركضاً نحو كل قارات العالم، ترفع ألوية النور والسلام! فانظر يا صاحبي هنا وهناك!

ألست ترى؟.. الذين يبصرون وحدهم الآن يشاهدون بوارقَها خفاقة في كل مكان!